بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي أرسله الله تعالى إلى العالمين شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد . . .

« فصناعة التفسير قد حازت الشرف من جهة الموضوع والغرض والحاجة ، أما من جهة الموضوع ؛ فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يخلَق على كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه ، وأما من جهة الغرض ؛ فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوُثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى ، وأما من جهة الحاجة ؛ فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجلي أو آجلي ، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية ، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى »[1].

وقد ندب الله عز وجل عباده إلى تدّبر هذا الكتاب العزيز فقال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص:٢٩)، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة:٢٦٩) ، قال ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ ﴾ « المعرفة بالقرآن ، ناسخه

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ٤٥٤/٢ بتصرف (دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م) .

ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله»[1].

ومن هنا انبرى علماء الأمة وتسابقوا إلى استخراج درر القرآن الكريم كل منهم يقتبس منه ما يسَّره الله تعالى ووفقه إليه ـ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ـ ومن بين هؤلاء العلماء الإمام الحافظ عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي المتوفى سنة ٦٦١هـ .

أسباب اختيار الدراسة

تأتي أهمية اختيار هذا الموضوع للأسباب والاعتبارت الآتية :

أولاً : إن هذا التفسير لم ينل حظه من الدراسة والبحث من قبل الباحثين ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن التفسير بقي حبيس أدراج المكتبات في العالم مخطوطاً ولم ير النور إلا قبل سنتين حيث طُبع حديثاً بمكتبة الأسدي في مكة المكرمة بتحقيق الأستاذ الدكتور عبد الملك الدهيش ، وكان هذا السِفْر في تسعة مجلدات أحدها للفهارس .

ثانياً : التعريف بأحد علماء الأمة وإظهار آثاره ومنهجه في التفسير ، فضلاً عن التعريف بشيوخه وتلاميذه ورحلاته في طلب العلم .

ثالثاً : يمثل صاحب التفسير المدرسة الحنبلية في التفسير التي تفتقر المكتبة الإسلامية إلى تفاسيرهم المطبوعة .

رابعاً : اهتمام الرسعني في تفسيره وعنايته بآيات الأحكام على المذهب الحنبلي ، وهذا وحده سبب كاف لدراسته ؛ لما هو معروف لدى معظم الباحثين والمتخصصين أن المكتبة الإسلامية تفتقد لكتاب في أحكام القرآن على المذهب الحنبلي ، أسوة ببقية المذاهب .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٥٣١/١ (تحقيق : أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م).

الدراسات السابقة

لم يسبق ـ فيما اطلعت عليه ـ أن تناول أحد تفسير الرسعني المسمى «رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز» بدراسة منهجه دراسة مستقلة تُعْنى بإبراز وإيضاح منهجه في التفسير ، إلا أن هناك دراسة في تحقيق تفسير سورتي آل عمران والنساء قام بها الدكتور محمد صالح البراك لنيل شهادة الدكتوراه من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وقد اطلعت على هذا الكتاب المطبوع في دار ابن الجوزي الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م ، وقام الباحث بعمل دراسة مختصرة عن حياة الرسعني ، وكذلك فعل محقق التفسير الدكتور عبد الملك الدهيش وأضاف نبذة مختصرة عن منهج الرسعني في تفسيره ، وهذا التفسير لأهميته بحاجة لدراسة مستقلة تُعنى بإيضاح منهج المؤلف بصورة تفصيلية من خلال دراسة التفسير من أوله إلى آخره .

الصعوبات التي واجهت الباحث

من أهم الصعوبات التي واجهت الباحث فقدان مقدمة التفسير التي تمثل منهج المؤلف في تفسيره وتعدّ بمثابة خارطة طريق يستطيع الباحث من خلالها مطابقة ما ألزم المفسِّر نفسه به من منهج في التفسير ، فضلاً عن فقدان تفسير بعض السور كسورة الفاتحة والبقرة والمائدة وتفسير آيات عدة من آل عمران والأنعام ، وهو ما أثَّر على مبحث الفقه وأصوله ؛ نظراً للكم الكبير الذي تحتويه تلك السور من آيات الأحكام .

منهج البحث

١- دراسة كتاب «رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز» دراسة منهجية موسعة تقوم على الوصف والتحليل ، وتُعْنى بإبراز أسلوب الرسعني في تفسيره ، ومنهجه في خدمة كتاب الله وعلوم القرآن بشكل خاص ، مع توضيح طريقته في استنباط أحكام القرآن ، والعلوم العربية ، والفوائد الأدبية ، وطريقته ومنهجه في رد شبهات الطاعنين في القرآن والعقيدة الإسلامية .

٢- دراسة منهجه في الحديث ، ولاسيما أنه محدث حافظ ، آلت إليه مشيخة الحديث في بلده الموصل ـ كما سيأتي في ترجمته ـ فهو يذكر الأحاديث بسندها وهذا يدل على قيمة الكتاب من حيث التوثيق العلمي والتفسير بالأثر مما يمكن عدّ الكتاب من التفاسير التي اعتنت بنوعي التفسير بالأثر والرأي ، كتفسير القرطبي والشوكاني .

٣- دراسة منهج المؤلف في العلوم العربية كالنحو والبلاغة ومباحثاته الخاصة مع الزمخشري ، كل ذلك مدعم بالشواهد والأمثلة من تفسيره ، مع توثيق النقول والأقوال من مصادرها الأصيلة وعَزو الأقوال إلى أصحابها ؛ لأن من بركة العلم نسبة القول لقائله .

٤- عَزو الآيات الواردة في البحث ، وذلك بذكر اسم السورة ، ورقم الآية .

٥- تخريج جميع الأحاديث والآثار الواردة في البحث وذلك بعزوها إلى مصادرها الأصيلة ومحاولة الوقوف أحياناً عند نقد السند من خلال أقوال علماء الجرح والتعديل لمعرفة صحة الحديث من ضعفه .

٦- ترجمت لمعظم الأعلام الذين وردت أسماؤهم في البحث مستثنياً المشاهير من أعلام الصحابة والتابعين وتابعيهم ممن تغني شهرتهم عن الترجمة لهم .

٧- التعريف بالمدن وعدم الاكتفاء بالقديم من التعريفات ، وذلك بالاعتماد على القواميس الجغرافية الحديثة للبلدان قدر المستطاع ، والتعريف بالفِرَق الإسلامية ، وكذلك شرح غريب الألفاظ قدر المستطاع من خلال الرجوع لقواميس اللغة .

٨- عَزو الشواهد الشعرية لقائليها ، وتوثيق نسبة الأبيات الشعرية من الكتب المعتمدة ، وبيان بحر البيت الشعري .

٩- عملت على تقديم نبذة مختصرة عن كل علم تطرق إليه الرسعني كتمهيد للفصل أو المبحث ، كالتفسير بالمأثور والرأي ، وأسباب النزول ، والتفسير الإشاري . . . إلخ ، فضلاً عن الإشارة إلى أهم المؤلفات في كل علم من تلك العلوم والتعريف بأصحابها .

١٠- حاولت الرجوع لأقوال علماء التفسير قديماً وحديثاً لمناقشة أو تعضيد أقوال الرسعني في التفسير سواء كانت موافقة له أو مخالفة .

١١- صنع الفهارس للآيات والأحاديث والآثار والأعلام والشعر والمدن .

خطة البحث

يتكون هذا البحث من مقدمة ، وتمهيد ، وبابين ، وخاتمة ، وفهارس على النحو الآتي :

المقدمة : وتحتوي على أهمية وأسباب اختيار الدراسة ، والدراسات السابقة ، والصعوبات التي واجهت الباحث ، ومنهج الباحث في الدراسة ، وخطة البحث .

التمهيد : الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية في عصر الرسعني .

الباب الأول : ويحتوي على التعريف بالإمام الرسعني ، وفيه فصلان .

الفصل الأول : السيرة الاجتماعية للرسعني ، وفيه أربعة مباحث .

المبحث الأول : اسمه وكنيته ولقبه ونسبه .

المبحث الثاني : ولادته ونشأته وحياته الاجتماعية .

المبحث الثالث : أخلاقه وصفاته وأخباره .

المبحث الرابع : ثناء العلماء عليه ووفاته .

الفصل الثاني : السيرة العلمية للرسعني ، وفيه أربعة مباحث .

المبحث الأول : نشأة الرسعني العلمية وطلبه للعلم .

المبحث الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المبحث الثالث : آثاره ووظائفه العلمية .

المبحث الرابع : عقيدته .

الباب الثاني : منهج الرسعني في التفسير ، وفيه تمهيد وأربعة فصول .

التمهيد : الطريقة والمنهج والفرق بينهما .

الفصل الأول : مصادره في التفسير ، وفيه أربعة مباحث .

المبحث الأول : مصادره من كتب التفسير وعلوم القرآن .

المبحث الثاني : مصادره من كتب الحديث والفقه .

المبحث الثالث : مصادره من كتب اللغة والنحو والأدب .

المبحث الرابع : مصادره من كتب السيرة والزهد والرقائق والعقيدة .

الفصل الثاني : منهجه في التفسير بالمأثور ، وفيه خمسة مباحث .

المبحث الأول : منهجه في تفسير القرآن بالقرآن ، وبالسنة ، وبأقوال الصحابة والتابعين .

المبحث الثاني : منهجه في القراءات والاستعانة بها في التفسير .

المبحث الثالث : منهجه في أسباب النزول .

المبحث الرابع : موقفه من الإسرائيليات .

المبحث الخامس : آراؤه في علوم القرآن .

الفصل الثالث : منهجه في التفسير بالرأي ، وفيه خمسة مباحث .

المبحث الأول : سمات التفسير بالرأي عند الرسعني .

المبحث الثاني : التفسير الإشاري (الصوفي) عند الرسعني وموقفه منه .

المبحث الثالث : الاتجاه اللغوي في تفسير الرسعني .

المبحث الرابع : النحو في تفسيره .

المبحث الخامس : البلاغة والإعجاز في تفسيره

الفصل الرابع : مسلك الرسعني الحديثي والعَقَدي والفقهي وتأثره بالزمخشري وردوده عليه ، وفيه أربعة مباحث .

المبحث الأول : مسلكه في الحديث واهتمامه به .

المبحث الثاني : منهجه العقدي في التفسير .

المبحث الثالث : منهج الرسعني في الفقه وأصوله .

المبحث الرابع : تأثره بالزمخشري وردوده عليه .

الخاتمة : نتيجة البحث والتوصيات .

فهارس الرسالة :

فهرس الآيات .

فهرس الأحاديث .

فهرس الآثار .

فهرس الشعر .

فهرس الأعلام .

فهرس البلدان والأماكن والمدارس والفِرَق .

فهرس المصادر والمراجع .

فهرس الموضوعات .

وبعد هذا فقد استكملت ـ والحمد لله ـ هذا البحث ، وهو جهد المقِلّ ، وحسبي أنني قد بذلت جهدي بعد عامين من البحث ؛ لتخرج الدراسة على هذه الصورة ، والتي ستكتمل بإذن الله بعد التقويم والمناقشة ، ويبقى الكمال لله وحده ولكتابه العزيز ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

القاهرة : صفر ١٤٣٤ هـ

الموافق يناير ٢٠١٣ م

عبد المنعم جمعه صالح

التمهيد
الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية في عصر الرَّسعني

إن الإشارة إلى الحالة السياسية ، والاجتماعية ، والعلمية في بلاد الشام والعراق ـ في القرن السابع الهجري حيث عاش الرسعني رحمه الله ـ من الأهمية بمكان لمعرفة وقائع تلك الحقبة الزمنية بما فيها من أحداث جسام ألقت بظلالها على تلك البلاد خاصة وبلاد المسلمين عامة ، ونقلت المنطقة إلى مرحلة جديدة من تاريخها .

فمعرفة بيئة المؤلف والظروف التي أحاطت به تسهم بقدر ما في إلقاء الضوء على هذه الشخصية ، ومدى تأثرها بالواقع السياسي والاجتماعي والعلمي الذي عاصره ، والإنسان ابن بيئته فيتأثر بها سلباً أو إيجاباً ، ومن ثَمَّ فهي تترك آثارها عليه وعلى مسيرته العلمية خاصة .

ومن هنا كان لزاماً أن أقدم هذا التمهيد لأُبيّن أهم ملامح هذه الحقبة الزمنية ولو بشيء من الاختصار ؛ لأن مبحثاً كهذا لا يمكن أن يُحيط بكل ما جرى في القرن السابع الهجري وما مرّ به من أحداث .

أولاً : الحالة السياسية

كان العالم الإسلامي ـ في القرن السابع الهجري ـ منقسماً إلى مجموعة من الدويلات والممالك التي يتنازع حكامها ويتقاتلون فيما بينهم من أجل السيطرة على الحكم مؤثرين مصالحهم الشخصية على حساب مصالح المسلمين عامة[1] ناسين أو متناسين قول الله عز وجل ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال:٤٦).

لقد حكمت بلاد الشام في تلك الحقبة ـ بداية القرن السابع الهجري ـ الدولة الأيوبية تحت سلطان الخلافة العباسية والتي لم يكن لها من الحكم إلا الاسم ،

---

(١) دولة المغول والتتار ، دكتور علي محمد الصلابي ٤٠ ، ٤١ بتصرف (دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٣٠هـ ، ٢٠٠٩م) .

فهي فاقدة لسيطرتها العسكرية والسياسية ولم يبق لها إلا القوة الروحية التي تبارك تولية السلاطين والأمراء واكتفى الخليفة العباسي من حكام هذه الدويلات بالدعاء له يوم الجمعة على المنابر .

في هذه الحقبة الزمنية وبعد وفاة الملك العادل[1] ـ أخي صلاح الدين الأيوبي ـ سنة ٦١٥هـ بدأ النزاع داخل البيت الأيوبي ودبّ الخلاف بين أفراده وانشغلوا بالمنازعات على الملك ، الأمر الذي جعل هؤلاء الأمراء يستعينون بالمماليك الذين اشتروهم لأجل الغلبة والسيطرة ، وربما كان المتنازعون أحياناً يلجأون للإفرنجة طالبين العون والنجدة ضد بعضهم البعض[2] وهذا ما جعل الفرصة سانحة للإفرنج للتدخل في بلاد المسلمين ، كل ذلك حال دون إقامة حلف إسلامي يستطيع الوقوف أمام الغزو المغولي[3] لبلاد المسلمين كما وقف الأيوبيون أنفسهم من قبل أمام هجمات الصليبيين فصدوهم واستعادوا بيت المقدس وكانوا سدًّا منيعاً أمامهم وحفظ الله بهم بلاد المسلمين .

---

(١) **هو** : سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شادي ، يلقب بالملك العادل ، من خيار الملوك وأجودهم سيرة ، تولى الملك بعد أخيه صلاح الدين ، توفي سنة ٦١٥هـ . انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ٧٩/١٣ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير : ٤٤١/١٠ - ٤٤٦ (تحقيق : دكتور محمد يوسف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، أحمد بن علي المقريزي ١٦٥/١ وما بعده ، القسم الثاني ، (تحقيق : محمد مصطفى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٢ ، ١٩٥٦م) ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧٩/١٣، ١٢٣، ١٦٢، ١٧٤ وغيرها ، (مكتبة المعارف ، بيروت ، ط٦ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٥م) ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، دكتور أحمد شلبي ١٣٥/٤، ١٣٦ (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٦ ، ١٩٨٣م) .

(٣) **المغول والتتار** : قبائل منغولية عاشت في المنطقة الواقعة في وسط آسيا بين نهري سيحون وجيحون من الغرب حتى حدود الصين الجبلية ، وظهروا على مسرح الأحداث في أواخر القرن السادس الهجري واستطاعوا أن يؤسسوا لهم إمبراطورية عالمية في أقصر مدة ، ويعد التتار من المغول ، وهم شعبة متفرعة من المغول وليس المغول فرعاً من التتار ، ثم أصبحت لهم دولة مستقلة سيطرت على المغول حقبة من الزمن . انظر : دولة المغول والتتار للصلابي ٢٧ ، ٢٨ .

وأمام هذا الحال برزت قوة جديدة على الساحة تمثلت بالمماليك البحرية[1] الذين استغلوا اختلاف أمراء وسلاطين الدولة الأيوبية ، واستطاعوا أن يؤسسوا دولتهم بعد القضاء على الدولة الأيوبية وذلك بعد مقتل آخر حكامها في مصر وهو الملك توران شاه[2] ابن الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤٨هـ .

لم يستطع المماليك بسط نفوذهم على الشام كما بسطوها في مصر ؛ إذ بقيت بعض أجزاء من الشام تحت سيطرة الأمراء الأيوبيين الذين بقوا ينازعون المماليك لاستعادة ملكهم من جديد ومن هنا بقيت الفتن والاضطرابات الداخلية سمة مميزة لفترة ملكهم فضلاً عن الأخطار الخارجية المتمثلة بالخطر المغولي والصليبي .

وعلى الرغم من هذه الفتن وتلك القلاقل فقد دفع الله بالمماليك خطرين عظيمين ؛ إذ استطاعوا ردَّ الصليبيين والتتار ودحرهم وإرجاعهم عن ديار المسلمين ، فمعركة عين جالوت[3] بقيادة قُطز[4] التي رسمت خارطة جديدة

---

(١) سُموا بالمماليك البحرية نسبة إلى بحر النيل حيث إن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون لهم مستقرًا ومقاماً ، وقيل لأنهم كانوا يجلبون عن طريق البحر ، وكان الخلفاء العباسيون أول من استخدم المماليك أو الرقيق الأبيض ، ثم سار على إثرهم الأيوبيون بالإكثار من شراء المماليك لتقوية سلطانهم ، انظر : العصر المماليكي في مصر والشام ، دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ١-٥ (دار النهضة العربية ، ط٢ ، ١٩٧٦م) .

(٢) **هو** : السلطان الملك غياث الدين توران شاه ابن السلطان الملك الصالح أيوب ابن الكامل ابن العادل ، ولد بمصر ، وقيل كان لا يصلح للملك لطيشه ، قتل سنة ٦٤٨هـ . انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٣/١٩٣ .

(٣) **هي** : معركة بين المسلمين والتتار بقيادة قطز وكانت في رمضان سنة ٦٥٨هـ ، وسميت المعركة باسم الموقع الذي حدثت به وهي بلدة عين جالوت التي تقع بالقرب من نابلس في فلسطين . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢٢٠ ، ومعجم البلدان ، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ٣/١٥ ، (تحقيق : فريد الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت) .

(٤) **هو** : السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي ، كان فارساً شجاعاً من المماليك ، قتل في ١٦ من ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ ، ولم يكمل سنة في السلطنة . انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٣/٢٠٠ .

لبلاد المسلمين وأعادت الهيبة للمسلمين ، الأمر الذي قوّى مركز المماليك وجعل منهم قوة سياسية لها وزنها في المنطقة[١]، ثم لم يلبث السلطان بيبرس[٢] (٦٥٨-٦٧٦هـ) أن أقضّ مضاجع الصليبيين والتتار[٣] ودفع الله به شرًّا كبيراً عن البلاد .

إن أهم الأخطار التي واجهت البلاد الإسلامية آنذاك تمثلت بالخطرين الصليبي والمغولي ـ كما أسلفت ـ فضلاً عن المنازعات والثورات الداخلية التي كانت تحصل بين الحين والآخر وخاصة بين الأمراء لتولي السلطة ؛ مما كان له أبلغ الأثر على حياة عموم الناس .

لقد كان نظام الخلافة في العصرين الأيوبي والمملوكي نظاماً وراثيًا ، وغلب عليه الطابع العسكري والعرفي على الرغم من اتخاذ الشريعة الإسلامية دستوراً ، فكثيراً ما كان يحدث الاستبداد من قِبَل الأمراء أو وكلائهم على عامة الناس[٤]، وسرعان ما يسرع الحاكم عند تعرض البلاد لخطر خارجي لاستمالة العلماء للوقوف بوجه هذا الخطر ، أما العامة فلم يكن لهم من الأمر شيء وإن كان السلطان يراعي أمورهم ولا يهملهم .

أما الوظائف الشرعية فقد كانت قائمة كالحسبة والقضاء الذي كان له سلطانه وتقاليده القائمة على المذاهب الأربعة فكان لكل مذهب قاض يقضي به بين أصحابه ومعتنقيه[٥].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٧٩-١٧٤ ، السلوك للمقريزي ١/١٦٥-٢٢٥ ، الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لبلاد الشام : جوزف فؤاد ٤-٦ ، (رسالة ماجستير غير مطبوعة برقم ٨٣-١١-٩- ٠ ، معهد الدراسات الشرقية ، القاهرة).

(٢) هو : الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ، وهو من المماليك ، تولى الملك بعد مقتل قطز ، توفي في دمشق في محرم سنة ٦٧٦هـ . انظر ترجمته في السلوك للمقريزي ١/٦٣٥ ، ٦٣٦ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢٢٠-٢٤٤ ، عصر سلاطين المماليك ، محمود رزق سليم ١/٢٧ (مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨١هـ ، ١٩٦٢م) .

(٤) العصر المماليكي في مصر والشام لسعيد عبد الفتاح عاشور ٥ ، ٦ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير : ١٣/٢٤٦ ، صبح الأعشى ، أحمد بن علي القلقشندي ٤/٣٤ - ٣٦ (المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣م)

في ظل هذه الأجواء المضطربة المصحوبة بضعف المسلمين وتكالب الأعداء عليهم والمتمثل بالإفرنج والتتار عاش الإمام الرسعني ـ رحمه الله ـ حيث تعرضت بلاده لأكثر من خطر كان أهمها خطر التتار الذين عاثوا فساداً وخراباً ونهبوا وسلبوا وقتلوا الكثير من المسلمين ، ولم يقف في وجوههم أحد آنذاك ، وملوك الإسلام منحجرون في الأثقاب ، ـ كما يقول ابن الأثير ـ لا يحركون ساكناً ، ويبدو أن هذا الاعتداء قد تكرر على بلاد الرسعني أكثر من مرة[1].

لم أجد في سيرة الإمام الرسعني ـ رحمه الله ـ ما يشير إلى دوره في هذه الأحداث التي تشيب لها الولدان ، وإن كنت لا أستبعد وقوفه بوجه هذا الخطر الداهم ودعوته لجهاد الأعداء وتوحيد صفوف المسلمين كما هي سجية العلماء الربانيين ، فالإنسان ابن بيئته يؤثر فيها ويتأثر بما يجري حوله وخاصة عندما تحتل بلاد الإسلام ، وهذا ما فعله الرسعني عند سقوط بيت المقدس عام ٦٢٦هـ بيد الإفرنج حيث استعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه[2]، وكتب بذلك قصيدة جاء فيها .

ونبكـي دمـاً بعـد الـدموع فإنـه قليل على ما قد أُصبنا من القدسِ[3]

ثانياً : الحالة الاجتماعية والاقتصادية

لم تكن الحالة الاجتماعية والاقتصادية لبلاد الشام في تلك الفترة أحسن حالاً من الحالة السياسية ؛ لأن ما تعانيه البلاد من فتن وعدم استقرار كان ينعكس مباشرة على المجتمع ويلقي بظلاله على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية للسكان .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤٩٥/١٠ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٢٩/١٣ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤٨١/١٠ .

(٣) قلائد الجمان ، المبارك بن أحمد المعروف بابن الشعار الموصلي ٢٧١/٣ (تصدير فؤاد سزكين ، معهد العلوم العربية والإسلامية ، ألمانيا ، ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠م وهي نسخة مخطوطة مصورة موجودة في معهد الدراسات الشرقية ، القاهرة ، برقم : ٥١-٧٦٨/٢ - ٩) ، والبيت من البحر الطويل .

«ويقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد ذكر فئات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الفئات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها ووصف بلاط ومجالس الخلفاء ... إلخ ، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع»[1].

لقد كان المجتمع في تلك الحقبة يتألف من فئات عدة يتميز بعضها عن بعض[2]، ويمكن أن يقسم ذلك المجتمع في العهد الأيوبي والمملوكي إلى عدة فئات هي :

١- فئة الحكام والأمراء وهذه تعتبر الفئة الأولى لأن بيدها السلطة والحكم .

٢- فئة العلماء والأدباء والتجار ، وهذه الفئة كان لها مكانة عند الحكام لأنهم كانوا بحاجة دائمة إليهم فالقوة المادية عند التجار ، والمعنوية عند العلماء وهما أهم سلاحين ينظر إليهما الحاكم .

٣- فئة العمال والفلاحين وعامة الناس الذين عادة يعملون ويكدحون لراحة غيرهم ، ولقد أوجدت العزلة التي عاشها بعض الحكام فجوة بينهم وبين المجتمع مما ترك أثراً على حياة أفراد المجتمع ؛ إذ جعلتهم لا يهتمون بما يحدث حولهم من أحداث كبرى فبقي الفلاح في حقله والتاجر في متجره والفقيه في مدرسته أو جامعه[3].

---

(١) انظر : تاريخ الإسلام السياسي ، دكتور حسن إبراهيم حسن ٤٧٥/٣ بتصرف (مكتبة النهضة المصرية ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٨٢م) .

(٢) هذا التقسيم لا يقتصر على عصر دون عصر بل هو لكل العصور ؛ لأن من سنن الله الكونية أن يتكون المجتمع من فئات عدة ، يتفاوت الناس فيه في العلم والرزق لتستقيم الحياة ، وهو مصداق لقوله تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: ٣٢).

(٣) انظر : صبح الأعشى للقلقشندي ١٤/٤ وما بعدها ، العصر المماليكي في مصر والشام ، دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ٣٢٣ وما بعدها ، الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لبلاد الشام لجوزف فؤاد ١١١ وما بعدها .

إن لوضع بلاد الشام المضطرب سياسيًا وعسكريًا بفعل الغزوات التي تتعرض لها خارجيًا فضلاً عن عدم الاستقرار داخليًا أبلغ الأثر على مجمل حياة السكان ، فكانت الغزوات الخارجية وما تخلفه من دمار وقتل وتشريد وتدمير للأراضي الزراعية وكثرة المنازعات الداخلية بين الأمراء مما ينعكس سلباً على حياة الناس ويؤثر بشكل وبآخر فتغلق الأسواق وتعطل مصالح الناس وقد تستمر لعدة أسابيع يعاني الناس من الجوع والفزع والقلق ، مع قلة الأمطار وانتشار الجراد الذي يأكل الغلات والزروع والخضار[1].

ولكن على الرغم من كل هذا فقد اهتم السلاطين والأمراء بالزراعة اهتماماً كبيراً ؛ لأنها كانت الحرفة الأولى والمورد الأهم للسكان ، وكذلك انتشرت الصناعة وخاصة الصناعات الحربية مما انعكس إيجاباً على حياة الناس ، وقد انتشرت المستشفيات والمنشآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ، وسادت بعض المدن روح المرح والترويح وخروج الناس للحدائق[2].

ولعل هذا ما جعل تلك الفترة تزخر بانتشار المساجد والمدارس مما أثر على الحركة العلمية والفكرية وهذا ما سنتحدث عنه في الفقرة الآتية .

ثالثاً : الحالة العلمية

كان من أثر استقلال الدول عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة العلمية والفكرية وظهرت كثير من الفرق التي اتخذت العلم والثقافة وسيلة لتحقيق أهدافها ، ولا يخفى على المتتبع أن دخول التتار لبغداد ، وهجرة كثير من العلماء الذين استقروا في مدن العالم الإسلامي ، واستقرار مركز الخلافة في مصر كان من جملة الأسباب التي جعلت بلاد الشام ومصر تزخر بذلك أكثر ؛

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤٣٧/١٠ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٠٦/١٣ ، الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لبلاد الشام لجوزف فؤاد ١٨١ .

(٢) العصر المماليكي في مصر والشام ، دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ٢٣١-٢٨٩.

لأن عادة العواصم أن تجتذب أهم العلماء وتبنى فيها أكبر المساجد والمكتبات ؛ لوجود الأمراء والحكام فيها وهذا ما يلاحظ إلى يومنا هذا .

إن اهتمام الأمراء والحكام بالعلم لم يكن أمراً خافياً ، فقد سار أمراء البيت الأيوبي والمماليك من بعدهم على هذا النهج حتى غدت بلاد مصر والشام محط رحال الكثير من العلماء وطلاب العلم ويدل على ذلك التراث الكبير الذي أثرى به العلماء المكتبة الإسلامية بشتى فنون المعرفة .

لم تشغل الحروب السلاطين والأمراء عن رعاية العلم والأدب والاهتمام بالعلماء والأدباء والشعراء فقد قربوهم لمجالسهم واستمعوا إلى كتاباتهم وشجعوهم[1] ، ويعود ذلك إلى اهتمام الأمراء والسلاطين أنفسهم ببعض العلوم فنرى الظاهر بيبرس ـ مثلاً ـ كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ، وكذلك وجد منهم من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية في القلعة ويناقش فيها المسائل العلمية بين العلماء ، وقد وجد من بعض الأمراء أو أبنائهم ممن اشتغلوا بالتاريخ والفقه واللغة والحديث[2] ، فعندما نقرأ تاريخ ملوك بني أيوب يوشك ألا تصادف منهم ملكاً قليل العناية بالعلم أو فاتراً في تشجيع أهله وتقريبهم إليه ، وقد سار المماليك على هذا المنحى غير أن الأيوبيين كان لهم سبق التصنيف في العلوم ، واكتفى المماليك بتشجيع العلم[3] .

ومن مظاهر عناية الأمراء والسلاطين بالعلم اهتمامهم البالغ بإنشاء المدارس ـ التي كثرت في مصر والشام ـ والإنفاق عليها ووقف الأوقاف على مدرسيها وطلابها على الرغم من ظروف تلك الحقبة الزمنية حيث الحروب والغزوات التي كانت تتعرض لها بلاد المسلمين ، فقد سار صلاح الدين الأيوبي في بناء

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٧١ ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، دكتور أحمد شلبي ٥/١٩٢ .

(٢) العصر المماليكي في مصر والشام ، دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ٣٤١، ٣٤٢.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٢١ ، الحركة الفكرية في مصر ، دكتور عبد اللطيف حمزة : ١٤٩ ، ١٥٤ (دار الفكر العربى ، ط١) .

المدارس وكان مقلداً لمولاه نور الدين زنكي الذي كان مقلداً بدوره للسلاجقة كغيره من أمراء البيت الأتابكي[1]، فأنشأ الأيوبيون العديد من المدارس من أهمها المدرسة القمحية[2]، والمدرسة السيوفية[3]، والمدرسة الناصرية[4]، وغيرها، ثم نهج الملك الكامل نهج أخيه صلاح الدين فقد أنشأ المدرسة الكاملية[5] سنة ٦٢٢هـ وأنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب المدرسة الصالحية[6] سنة ٦٣٩هـ وفيها تُدّرس المذاهب الأربعة[7].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨٤/١٣، ١١٢، ١٣٥، ١٤٧، ١٦٢، الحركة الفكرية لعبد اللطيف حمزة ٨٢، موسوعة التاريخ الإسلامي، دكتور أحمد شلبي ٦٩٢/٥.

(٢) **هي**: مدرسة الفقهاء المالكية، أنشأها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٦هـ بجوار الجامع العتيق بالقاهرة، وسميت بالقمحية لما يتحصل لها مما أوقف عليها من القمح ويفرق على من فيها من الشيوخ والطلبة. انظر: الخطط للمقريزي ٣١٦/٣ (دار التحرير للنشر، القاهرة، طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ).

(٣) **هي**: مدرسة الفقهاء الحنفية، أسسها صلاح الدين الأيوبي في القاهرة وأوقفها على الحنفية، وسميت بالسيوفية من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها. المصدر السابق ٣١٨/٣.

(٤) **هي**: مدرسة الفقهاء الشافعية، أسسها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٦هـ بجوار الجامع العتيق بالقاهرة، وأوقفها على فقهاء الشافعية، وتعرف أيضاً باسم مدرسة ابن زين التجار؛ لأنه أول من درّس فيها. المصدر السابق ٣١٥/٣

(٥) **هي**: مدرسة الحديث في القاهرة، أسسها الملك الكامل ناصر الدين ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦٢٢هـ، أوقفها على المشتغلين بالحديث النبوي ثم على فقهاء الشافعية، وسميت بالكاملية نسبة لاسم مؤسسها. المصدر السابق ٣٣٥/٣.

(٦) **هي**: مدرسة فقهاء المذاهب الأربعة، أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب في القاهرة، وسميت بالصالحية نسبة إلى مؤسسها. المصدر السابق ٣٣٣/٣.

(٧) المصدر السابق ٣١٦/٣-٣١٨، وانظر بقية المدارس في نفس الكتاب ٣١٤/٣-٣٨٤.

وقد سلك المماليك المسلك نفسه في فتح المدارس فأسسوا المدرسة الجوزية الظاهرية[1] وغيرها ، ولم تكن جميع المدارس في المدن الكبرى بل تعدى ذلك إلى القرى والأرياف[2].

ولم تكن المدارس وحدها هي الأماكن التي يتلقى فيها العلم ، وإنما كانت المساجد والزوايا فضلاً عن الاهتمام بالمكتبات التي كانت عامرة بأنواع الكتب لتكون إلى جانب المدارس والمساجد مَعلماً حضاريًّا عظيماً في بلاد المسلمين[3].

إن نظرة لنتاج العلماء في القرن السابع الهجري نجده نتاجاً خصباً أثرى المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات وفي مختلف العلوم إذ ما زالت المخطوطات التي تعود لهذا العصر حبيسة الأدراج ولم تر النور إلى يومنا هذا ، فضلاً عن الذي طبع وحقق ؛ مما يدل على عطاء كبير لازالت معظم الدراسات الحديثة تعتمد عليه .

لقد زخرت فترة الإمام الرسعني بخيرة علماء الأمة وحظي باللقاء ببعضهم

---

(١) هي : مدرسة جميع المذاهب ، أسسها الملك ظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ في القاهرة ، ودرست فيها مختلف العلوم ، وسميت بهذا الاسم نسبة لمؤسسها ، انظر : الخطط للمقريزي ٣/٣٤٠ .

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ، عبد القادر محمد النعيمي ١/٣٤٨-٤٥٩ و ٢/٢٩ (تحقيق : جعفر الحسني ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٨٨م) ، العصر المماليكي في مصر والشام لسعيد عاشور ٣٤٣ .

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي ٤/٤٢٠ وما بعدها ، العصر المماليكي في مصر والشام لسعيد عبد الفتاح عاشور ٣٤٥، والمدارس ونظام التعليم في بلاد الشام ، دكتور أحمد خالد ٥٦ وما بعدها (المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م).

والتتلمذ على أيديهم كابن قدامة المقدسي[1] والعكبري[2] وغيرهم الذين تنوعت اهتماماتهم وتعددت مؤلفاتهم فتركوا لنا أسفاراً خالدة على الرغم من ضياع الكثير منها بسبب الحروب والغزوات التي تعرضت لها بلاد المسلمين .

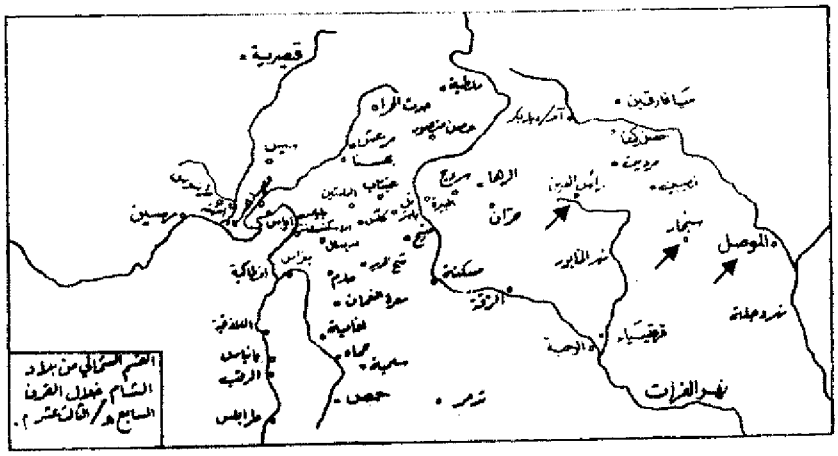

هذه الخريطة أخذت من : أطروحة ماجستير : الأوضاع السياسية في بلاد الشام ، للباحث : جوزف فؤاد ، وتظهر فيها المدن التي نشأ وعاش فيها الرسعني

---

(١) هو : عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي ، مؤلف كتاب المغني ، توفي سنة ٦٢٠هـ ، وستأتي ترجمته مفصلة في شيوخ الرسعني ، انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ٩٩/١٣ .

(٢) هو : عبد الله بن الحسين بن عبد الله أبو البقاء العكبري البغدادي ، فقيه ، لغوي ، مقرئ ، له مصنّفات منها التبيان في إعراب القرآن ، توفي سنة ٦١٦هـ ، وستأتي ترجمته مفصلة في شيوخ الرسعني ، انظر : ترجمته في قلائد الجمان لابن الشعار الموصلي ٢٦٥/٤ ، ٢٦٦ .